مجلة المعالم

العدد : ٢٢٠ الموافق في صفر ١٤٢١ هجري ٦/٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : عصام العطار شاعراً	بقلم : أ. عبد الله الطنطاوي

كان عصام العطار يوماً رجل سورية ، وزعيم الشارع السياسي ، عرفه الناس خطيباً مصقعاً ، وكاتباً أديباً ، وقائداً سياسياً ، وداعية إسلامياً ، وبرلمانياً نشيطاً ، ورجل دولة ، ومراقباً عاماً لجماعة الإخوان المسلمين في سورية ، ومناضلاً من الطراز الأول ، ولكنهم لم يعرفوه شاعراً ، مع أنه شاعر مطبوع ، في شعره جزالة فحول الشعراء ، وديباجة المطبوعين من الشعراء ، وصور المبدعين من الشعراء ، ويتفوّق على كثير من الشعراء المعدودين في الكبار وأصحاب الشهرة ، ولو أراد أن يكون شاعراً محترفاً ، لبزّ الكثيرين منهم ، ولكان في الطبقة التي تلي طبقة بدوي الجبل ، وعمر أبي ريشة ، ولوقف إلى جانب عمر بهاء الدين الأميري ، ويوسف القرضاوي ، ومحمود حسن إسماعيل ، ولكنّ المشكلات الدعوية ، والمعضلات الوطنية ، والنضال السياسي ، والتصدّي للأعاصير التي كانت تريد أن تعصف بالدعوة والدعاة ، وبالحياة الحرة الكريمة ، وبسورية الحبيبة ، وبفلسطين التي كان يئنّ نصفها تحت الاحتلال الصهيوني ، ويهيّىء المتآمرون ، في الداخل والخارج ، نصفها الثاني ليكون تحت الاحتلال أيضاً ، ومشكلات الوحدة والانفصال ، ومؤامرة الثامن من آذار ، وحرب حزيران ، وحرب تشرين ، واعتقال الدعاة ، والسعي لاستئصال الإسلام المتجذّر في بلاد الشام .. كلُّ ذلك ، صرف الأستاذ عصاماً عن الشعر ، إلا ما كانت تمتلىء به النفس ، ويأبى على الاحتباس في الصدر ، فيتفجّر شظايا نفس كبيرة ، أكبر من الظلام والظالمين ، وأقوى من اليأس والإحباط :

نمشي إلى الغاية الكبرى على ثقة ... عزمٌ حديد ، ونهجٌ غيرُ مُنبهم
وأنفسٌ قد شراها الله صادقةً ... أقوى من الموت والتشريد والألم
ما طأطأت قطُّ للطاغوت صاغرةً ... خوفاً وعجزاً ، وما ألقتْ يدَ السَّلم
سنصدع الليل مهما اشتدَّ غيهبُه ... ونحمل الفجرَ للإنسان والأمم
فجرٌ من العدل والإسلام مؤتلـــقٌ ... تُهدي سناه لأهل الأرض كلّهـــم

ومن كانت هذه حاله ، لا يجد الوقت الذي يسعفه للاستجابة لدواعي الشعر ، ومع ذلك ، مع كلّ المشاغل والمشكلات ولأواء الحياة ، كان يستجيب للقصيد ، كلّما هزّه موقف ، أو عراه شعور دقّاق لا يملك له دفعاً ، وهو يستجيش نفسه الحسّاسة .. المرهفة الإحساس .. المحاطة بحالة شعرية تريده أن

ينفث نفثات مصدور ، ضعضعته الألاقي ، وبرّح به البعد عن الإخوان ، والاغتراب القسريّ عن الأوطان ، فيتدفّق تدفق بردى وقت الفيضان ، ثم ما يلبث أن يرقّ ويلين ، لينساب انسياب بردى في واديه ، تشتاقه دوحاته ، وتحنو عليه بظلالها ، وتقبّله بأوراق أغصانها ، وتشنّف مسامعه بهديل وُرْقها ..

تطاول ليلي ، والسُّهاد مرافقي وما أطولَ الليلَ البهيمَ لآرق !
غريبٌ يقلّبه الحنين على الغضى ويُرْمضه شوقاً إلى كلّ شائق
تناءت به دارٌ وأوحش منـزلٌ وظلَّله همٌّ مديدُ السُّرادق
وألقتْه أحداثٌ على غارب النَّوى فياليت شعري هل معادٌ لتائق ؟!
تمرُّ به الأيام جرحاً وأسهماً وصبراً تحدَّى كِبرُه كلَّ راشق
وشـعلـة إيمـان يزيـد اتّقـادهـــــا على عصفـات الدهر عند المـــآزق

تُرى .. هل كان يستطيع عصام الإنسان احتباس كلّ هذه المشاعر .. مشاعر الشوق إلى الديار ، حيث الميدان الذي طالما صال فيه وجال ، وقاد رجالاً في طهر الملائكة ، وسَوْرة الأسود ، وجرأة فتيان بدر .. إنه يشتاق إلى منازل الهدى ، ويحنّ إلى الإخوان الأطهار الأبرار ، فيناديهم من وراء الحدود والسدود :

أحبّايَ يا مهوى الفؤاد تحيّةً تجوز إليكم كلَّ سدٍّ وعائق
لقد هدّني شوقٌ إليكم مبرّحٌ وقرّح جفني دافقٌ بعد دافق
وأرّقني في المُظْلمات عليكمو تكالبُ أعداءٍ سعوا بالبوائق
أردتم رضا الرحمن قلباً وقالباً ولم يطلبوا إلا حقيرَ الدَّوانق
فسدَّد في درب الجهـاد خُطـاكمـو وجنّبكم فيـه خفـيّ المـزالـــــق

تُرى أيّ عاطفة جيّاشة بالصدق والوفاء والحنين هذه العاطفة ؟

تُرى .. هل كان في إمكان الأخ عصام احتباس هذا الدَّفق العاطفي تجاه إخوانه ؟

يا ليته كان يستطيع الخلاص إليهم ، ليفتديهم بمهجته ، ويحمل عنهم ومعهم ما حُمّلوه من أعباء الجهاد ، في أرض الرباط والجهاد ، ظئر العروبة والإسلام :

وقفتُ شجيّاً لا أرى ليَ مَخْلَصاً إليكم ، وقد سُدَّتْ عليّ طرائقي
تمنّيتُ أني أفتديكم بمهجتي وأحملُ ما حُمِّلْتمو فوق عاتقي
تمنّيتُ حتّىضجعة السجن بينكم على الصَّخر في جوٍّ من الجور خانق
صلابةُ أرض السجن إن كان قُرْبَكم أحبُّ وأشهى من طريّ النَّمـــارق

وإخوانه هؤلاء :

همُ الحلم الريّان في وقدة الظَّما وليس على الآفاق طيفٌ لبارق
همُ الأمل المرجوُّ إن خاب مأمــلٌ وأوهنَ بُعْدُ الشَّوط صَبْرَ السّوابــق

ويختم الشاعر المؤمن رائعته هذه بتثبيت إخوانه ، وبثّ الأمل بنصر الله في نفوسهم ، فيهتف بهم :

أحبايَ إنّ النصر لا بدَّ قادمٌ وإني بنصر الله أولُ واثق
سنصدع هذا الليل يوماً ونلتقي مع الفجر ، يمحو كلَّ داجٍ وغاسق
ونمضي على الأيام عزماً مسدَّداً ونبلغ ما نرجوه رغم العوائق
فيعلو بنا حقٌّ علونا بفضله على باطل ، رغم الظواهر ، زاهق
ونصنع بالإسلام دنيا كريمـــةً ونَنْشُرُ نورَ الله في كلّ شـــارق

وأما رائعة العطار : (**ثورة الحق**) فهي ملحمة بحق ، وسوف تسير بها الركبان في قابل الأيام ، المنشور منها مائة وثمانية وتسعون بيتاً ، ويا حسرة على ما ضاع منها ، أو ما نخشى أن يضيع كما ضاع غيره . وفي هذه المعلَّقة الملحمة نطالع آثار الغربة على صاحب القلب الكبير ، شوقاً إلى الشام ، وحنيناً إلى الإخوان وأهل الشام ، وتنديداً بطواغيت الشام ، المتسلطين على الشام ، وما فعلت الأيام بأهل الشام ، حتى غاض الوفاء ، وصار الأصدقاء في سوك الأعداء ، نطالع آلاماً ، كما نحسّ أحزاناً ، ونسمع آهاتٍ وأنيناً ، ولكن في شموخ الرجال ، ومواقف الأبطال :

في الخوف والأمن ما زاغت مواقفنا والعسر واليسر قد كنّا ميامينا
فما رآنا الهدى إلا كواكبَه وما رآنا النَّدى إلا عناوينا

وما رآنا العِدى إلا جبابرةً وما رآنا الفِدا إلا قرابينا
نفوسُنا السلسل الصافي فإن غضبتْ للحقّ ثارت على الباغي براكينا
عشـنا أبيّين أحراراً فإن هلكـــتْ في الحـقّ أنفسُنـا متنـا أبيّينـــا

هل تذكّرنا فحولة هذه الأبيات وأخواتها ، بفحولة معاني عمرو بين كلثوم في معلّقته ؟ أم أنّها خلّفَتها وراءها كعجاجة كتيبة خالديّة أو مروانيّة ؟ :

كنّا الشُّموسَ بأرض الشام مُشْرقةً كنّا الغُيوثَ ربيعاً في روابينا
كنّا الحصونَ بأرض الشام شامخةً فيها الحُماةُ ، إذا عزَّ المحامونا
كنّا الرياح إذا نادى الصَّريخ بنا كنّا الرجاءَ إذا ضيمتْ أراضينا
كنّا الجبالَ ثباتاً في مواقفنا كنّا السماءَ سموّاً في معانينا
فوق المخـاوف ، لا الإرهـاب يُرْهبنـــا فـوق المطامـع ، لا الإغـراءُ يُغْرينـــا

هل يستطيع الناقد أن يتلبَّث قليلاً ، ليتحدث عن قوة المعاني ، ومتانة السبك ، ورصانة الأسلوب ، وإحكام القوافي ، وجمال الصور ، وروعة الموسيقى، وأسْر الأفكار ؟ أم أنه يعدو خلف الشاعر المجيد ، ويغوص في بحاره الزّخّارة ، لعلّه يقتنص بعض شوارده ، أو يلتقط بعض درره ؟

ففي الشوق والحنين نطالع شكوى وتباريح هوى :

يا شامُ يا شامُ يا أرض المحبّينا هانَ الوفاءُ وما هان الوَفا فينا
نحيا على البُعد أشواقاً مؤرِّقةً لا الوصل يدنو ولا الأيام تُسْلينا
إنّا حملنـاكِ في الأضلاع عاطفـةً وصورةً من فُتُون الحُسْن تَسْبينـــا

وفيها آلام وأحزان على ما نزل بالإخوان على أيدي الطغاة :

في مخلب الظلم من أكبادنا مِزَقٌ وفي النُّيوب بقايا من أمانينا
يا شامُ جرحُكِ في قلبي أكابدهُ دماً سخيّاً وآلاماً أفانينا
لا عاش فيكِ قريـرَ العيـن طاغيـــةٌ ولا رأى الأمـنَ يومـاً في مغانينـا

وبعد أن يطوّف بنا الشاعر ما يطوّف ، ينتهي بنا إلى ثورة الحقّ على باطل الطواغيت والمرجفين .. الثورة التي طالما انتظرها الشعب ، لتخلّصه من بين أنياب البغاة المفسدين :

يا ثورة الحقّ قد طال الظلام بنا وآن للفجر أن يمحو دَيَاجينا
تألّه الظلمُ ألواناً بعالَمنا فحطّمي الظلمَ فرعوناً وقارونا
وحرّري الأرضَ بالإسلام والتمسي خيرَ الهداية من خير النبيّينـــــا

ويبقى الشاعر القائد متفائلاً بنصر الله ، والتمكين لدينه في الأرض :

يا ثورة الحقّ ما أحلى مَرائينا الغيبُ يبدو لنا نصراً وتمكينا
وباسمُ الغد عَبْرَ الأفق نلمحه يهفو لملقاتنا غاراً ونِسرينا
وقادمُ النصر نحياه ونلمسه اللـهُ أكّده ، فالنصرُ آتينا
وقد يكون بنا ، والعمرُ منفسحٌ وقد يكون بأجيال توالينا
فإن ظفرنا فقد نلنا مطالبنا وإن هلكنا فإن الله جازينا
الموتُ في طاعة الرحمن يسعدنا والعيشُ في سخط الرحمن يُشْقينا
نرجو الشـهادة أو نصراً يواتينـــا نعطي الحياة فنُعْلي الحقَّ والدينـــا

وللأستاذ العطار شعر أصيل لم يُنشر بعدُ ، وأخشى عليه من الضَّياع ، وعندما تقرؤه ، تظنُّه لفحل من فحول الشعراء العباسيين ، فلا تنسبه لشعراء هذا العصر ، وكم أرجو وأتمنّى ، وألحّ في الرجاء والتمنيّ ، أن يبادر أحد الدارسين في الدراسات العليا ، إلى جمع شعر العطار ، ودراسته دراسة فنيّة ، وإخراجه للناس، ليستقوا منه عسلاً مصفّى ، كما يستقون من نبع بردى وعين الفيجة شعراً رائقاً صافياً .. أليس بردى - يا حسرة على بردى - شاعراً أخنى عليه الدهر ؟ .. أو ليس العطار يرود الرياض كما يرود القلوب ، ويمتصّ الرحيق من أزاهير الإنسان الإنسان ، ليقدّمه إلى المفؤودين عسلاً مصفّى في مرير الليالي ، وإلى التائهين والذين أضناهم طول السُّرى ، صُوىً ومعالم في مهامه العقائد والأيديولوجيات الدَّخيلة والوافدة من المجهول المعلوم ؟